الجامعة السورية وكلية الإلهيات (*)

(تمهيد)

أتى على الأمة العربية حين من الدهر كانت بلادها فيه جنة علم ذات أفنان ، تجلى في مغانيها عرائس العرفان ، فتهوي إليها أفئدة عشاق العلم والآداب في كل مكان . لم يكد يسطع نجم القرن الثاني في سماء الاسلام ، حتى تألق نوره ، وامتدت أشعته حتى بلغت حدود الصين شرقاً ، وأقاصي بلاد الأندلس ومراكش غرباً ، ونهر اللوار شمالاً ، وسواحل المحيط الهندي جنوباً .

في ذلك الدور الزاهر اتسعت دوحات العلم ، وامتدت ظلال الآداب ، وراجت سوق الخطابة والكتابة ، وبزغ هلال الحضارة العربية الذي لم يلبث أن صار بدراً كاملاً . وقد عُني رجال العصر الأموي ببعض الصناعات واهتموا بترجمة كتبها ، قال بعض المؤرخين : وأول من عرف اسمه في ذلك خالد بن يزيد بن معاوية الذي كان يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلاً في نفسه وله همة ومحبة للعلوم ، خطر بباله الصنعة (الكيميا) فأمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصَّح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي ، وهذا أول نقل كان في الاسلام من لغة الى لغة .

وفي العصر العباسي قد فجَّر علماء الاسلام القرآن عيوناً ، واستنبطوا من كنوز نصوصه علوماً وفنوناً ، واندفعوا بما هداهم اليه ذلك الوحي السماوي — كالسيل الآتي — يقيمون معالم الحضارة والعمران ، ويترجمون العلوم

(*) محاضرة ألقاها الاستاذ محمد بهجة البيطار في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في حزيران سنة ١٩٢٣ .

والفنون الرياضية والطبيعية والعقلية عن حكماء الهند والفرس والروم واليونان ، ولم ينقلوا هذه الفنون عن أصلها من غير إعمال فكر ولا روية ، بل أجالوا فيها نظر الناقد البصير ، فأوضحوا غامضها ، وأصلحوا خللها ، ووضعوا من الكتب في هذه العلوم أضعاف ماعرّبوا .

ومن عجيب صنع الله في هذه الأمة ، وبديع حكمته ، أن دينها ومدنيتها لا يفترقان ، وأن علماء الدين ورجال المدنية يستقون من عين واحدة ، فكلما زادوا في دينهم فهماً ورسوخا ، زادوا في المدنية الصحيحة بسطاً ونفوذا ، واستحكمت بين أفرادهم روابط المحبة ، واشتدت أواصر الاتحاد والألفة ، وتقلص ظل الجمود وانحلت عرى العصبيات ، قال حكيم : آخذ بيد القارىء الآن ، وارجع به إلى ما مضى من الزمان ، وأقف به وقفة بين يدي خلفاء بني أمية والأئمة من بني العباس ووزرائهم ، والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والأئمة المجتهدون من حولهم ، والأدباء والمؤرخون والاطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من مطيفون بهم ، وكل مقبل على عمله ، فاذا فرغ عامل من العمل أقبل على كل قبيل أخيه ووضع يده في يده ، يصافح الفقيه المتكلم ، والمحدث الطبيب ، والمجتهد الرياضي والحكيم ، وكل يرى في صاحبه عوناً على ما يشتغل هو به . وهكذا ادخل به بيتاً من بيوت العلم ، فاجد جميع هؤلاء سواء في ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون ، والامام البخاري حافظ السنة بين يدي عمران ابن حطان الخارجي يأخذ عنه الحديث ، وعمرو بن عُبيد رئيس المعتزلة بين يدي الحسن البصري شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه ، وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل : « لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته ، وكأن الانبياء ربته ، ان قام بأمر قعد به وان قعد بأمر قام به ، وان أمر بشيء كان ألزم الناس له وان نهى عن شيء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن منه ، ولا باطنا أشبه بظاهر منه ، بل أرفع بصري فأجد الامام أبا حنيفة أمام الامام زيد بن علي (صاحب مذهب الزيدية من

الشيعة) يتعلم منه أصول العقائد والفقه ، ولا يجد أحدهم من الآخر إلا مايجد صاحب الرأي في حادثة ممن ينازعه فيه اجتهاداً في بيان المصلحة وهما من أهل بيت واحد — أمرّ به بين تلك الصفوف التي كانت تختلف وجهتها في الطلب وغايتها واحدة ، وهي العلم » .

ليس من غرضنا أن نصف مدنيات العرب الدوارس ، ولا أن نحصي ماشيدوا في حواضر ملكهم من جوامع ومياتم ومستشفيات ومدارس ، فان تلك الذكرى تستدر كوامن الجفون ، وتستنزف قطرات القلوب ، على أن مئات الالوف من مصنفات أسلافنا الكرام التي ملأ بها الغربيون خزائنهم ، ونفائس الاواني والتحف التي استخرجوها من كنوز أرضنا وزينوا بها متاحفهم هي أعدل شاهد ، على ما كان لنا من مجد تالد :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وما زال أهل الصدق والانصاف من علماء الغرب يعترفون بفضل تلك المدنية الزاهرة ، وبعظمة آثارها الساحرة :

وما زال أهل الغرب يدرون قدرنا مدى الدهر ما أبدوا من الفضل معجما

متى يذكر الافضال فيهم خطيبهم على منبر صلى علينا وسلما

إنما الغرض من هذه العجالة التذكير بضرورة التماس الوسائل لاسترداد ما أضاعه الجهل من الحضارة العربية ، التي هي أساس لكل حضارة غربية .

إذا صح ماقاله أحد أئمتنا العظام : لا يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، وهو صحيح لاريب فيه : فنرى أن أسباب حياة سلفنا ترجع الى أمور ثلاثة : احياء الصناعات ، المحافظة على اللغة ، اقامة الدين . ولنتكلم على كل واحدة من هذه الثلاثة بقدر مايسمح به المقام .

(الصناعة)

يقصد من الصناعة كل ماتتوقف عليه حياتنا الحرة من غذاء وكساء وبناء ، وذلك بان يكون جميع وسائل الحياة ولوازمها من خيرات بلادنا

ومما تصنعه أيدينا ؛ ومعلوم أن الاستقلال الاقتصادي أساس لكل استقلال داخلي وخارجي .

ان قيامنا بصنع ما نحتاج اليه في بلادنا من لباس وأثاث ورياش ومتاع وأوان وسائر لوازم الحياة — يحتاج إلى تأليف جمعيات ، وتأسيس شركات وانشاء معامل ومصانع ، وتشييد مدارس صناعية وزراعية وتجارية ، يتعلم فيها طائفة من شباننا مايكفينا مشقة الأسفار ، إلى ماوراء البحار ، وانفاق الأموال الطائلة في هاتيك الديار ، بدعوى تعلم العلوم والفنون في مدارسها وجامعاتها . وتكون هذه المعاهد العربية فروعاً للجامعة السورية كما كان المجمع العلمي العربي وكليتا الطب والحقوق العربيتين فروعاً .

إذا بنينا أعمالنا على أساس التضامن والتكافل كان النجاح حليفنا باذن الله تعالى في ايجاد مانحتاج إليه في وطننا ، وكانت لنا منه فوائد جمة ، ونحن نذكر أظهرها وندع سائرها الى علمائنا الاقتصاديين :

(١) المحافظة على بقايا الذهب ، مما تركت الحرب المشؤومة ، وعاقبتها الوخيمة ، التي خربت ديارنا ، واجتاحت ثمارنا ، وذهبت برجالنا وأموالنا ، ولا نزال نتجرع غصصها وآلامها .

(٢) المحافظة على بقايا الاخلاق ، فان كثيراً ممن يذهبون الى بلاد الغرب يرجعون من هناك مذبذبين لا شرقيين بآدابهم وتربيتهم ، ولا غربيين بحرصهم على منفعة أمتهم ، يخلون على الأغلب من روابطهم القومية ، ومشخصاتهم الملية ، ويكونون أقسى قلوباً من الاحجار ، « وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار » ، ولا نزال نسمع أن فريقاً منهم يقيمون حفلات الرقص في مثل هذه الأوقات والأحوال ويوغلون فى أنواع الفجور مع مانحن فيه ، — فهل سمعتم أيها السادة بصنف أشد فساداً ، وأغلظ أكبادا ، من هذا الصنف من الناس :

يبكي علينا ولا نبكي لحالتنا   لنحن أغلظ أكباداً من الابل

وأرجو ألا يتهم واهم بأني اعرّض بكل من يذهب الى أوربا من أمتنا ، سواء في ذلك أولو الأخلاق الفاضلة ومن لا خلاق لهم . كيف يكون ذلك وان قسماً ممن ذهبوا إليها ورأوا بأم العين كيف أن الغربي يتفانى في خدمة أمته ووطنه — عادوا ونفوسهم تحدثهم بأن ينسجوا على منوالهم في رفع منار وطنهم واعلاء شأن أمتهم ، وأن أفراداً منهم يقومون بخدمة لبلادنا يعجز عن القيام بمثلها ألوف من غيرهم . والفرق بين الفضلاء والسفهاء ممن يذهبون إلى بلاد الغرب مثل الصبح ظاهر . فالأولون يعودون الى الأوطان ، وقد زادوا تمسكاً بآدابهم ، وحفظاً لأخلاقهم ، وحرصاً على نفع أمتهم ، والآخرون يعودون وقد انحلوا من كل أدب وخلق كريم .

(٣) جعل تعليم هذه الفنون والصناعات باللغة العربية ، ولقد صدق من قال : ان تعلم أي علم بلغة أجنبية ينقل المتعلم الى ذلك العلم ، وأما تعلمه إياه بلغته فهو ينقل العلم نفسه الى لغة المتعلم ؛ ونحن في مزيد حاجة الى نقل ما نحتاج اليه من اللغات الاجنبية إلى لغتنا ، ووضع كتب في ذلك أيضاً ، وتكثير سواد العالمين والمتعلمين منا وذلك متوقف على إحياء اللغة العربية .

(المحافظة على اللغة)

كلية الآداب العربية

كان عزم فريق من فضلاء دمشق وأدبائها وفي طليعتهم حضرة رئيس مجمعنا العلمي العلامة الاستاذ محمد كرد علي على أن ينشئوا كلية أدبية يسمونها (كلية الآداب العربية) وغايتهم منها المحافظة على لغة البلاد ، وجعلها لغة علوم وفنون وآداب كما كانت على عهد الاجداد ، ولا يخفى أن اللغة العربية هي السلك الكهربائي الذي ينظم قلوب أفراد الامة فيوجهها نحو مطلبها الأسمى ؛ وهي الروح الالهي الذي يدب في جثمان الأمة العربية

فيها الحياة الحرة مرة أخرى ؛ وهي النور السماوي الذي تسطع أشعته في بلاد العرب فتنير لأهلها سبل النجاة وتمزق حجب المخاطر والأوهام ، بل هي المعراج الذي ترتقي به من حضيض الذلة والصغار ، إلى أعالي سماء المجد والفخار ، وهي لسان مدنيتنا التي نشرنا أعلامها في جميع أنحاء المعمور ، وأخرجنا بها الأمم من الظلمات إلى النور .

قال أحد الأئمة : ان أولئك الشراذم والاوزاع من أهلها قد حملوها إلى الأمم ، التي كان للغاتها في العلوم قدم ، ولم يحملوهم عليها بالالزام ، ولا بالتعليم العام ؛ وكان من أمرها مع هذا أن نسخت بطبيعتها لغة المصريين من مصرهم ، والرومانيين من شامهم ، واستعلت على الفارسية المذبة في مهدها وموطنها ، وامتد شعاعها الى الأندلس في غربي أوربا بعد ما طاف ساحل أفريقيا الشمالي وإلى جدار الصين من الشرق — كل ذلك في زمن قريب لم يعرف في التاريخ مثله للغة أخرى من لغات الفاتحين الذين يتخذون كل الوسائل لنشر لغاتهم وتعميمها بالتعليم العام ، وضروب الترغيب والترهيب.

كانت لغة أميين وثنيين جاهليين فظهر فيها أكمل الأديان فكانت له أكمل مظهر ، وتجلى لها العلم فكانت له خير مجلى ، وصارت بذلك لغة الدين والشريعة ، وعلوم النقل والطبيعة ، ولكن عدت على أهلها عواد كونية ، وطرأت عليهم أمراض اجتماعية ، فضعف فيهم كل مقوم من مقومات الأمم الحية ، ومن تلك المقومات اللغة فقد فسدت ملكتها في الالسنة ، والتوى طريق تعليمها في المدارس ، حتى كادت تكون من اللغات الدوارس ، اه

علم أسلافنا الكرام أن اللغة هي من أقوى مشخصاتهم ، وبرهان حياتهم ، فحافظوا على مفرداتها وتراكيبها بما ألفوا من المعاجم اللغوية وقوانين الصرف والنحو ، وعلى معانيها وأساليبها بما صنفوا من كتب المعاني والبيان ، ونقلوا العلوم والفنون اليها ، ووضعوا كتباً فيها .

أراد الساعون في إنشاء كلية الآداب العربية أن يحذوا حذو سلفهم ، ويعيدوا عصر الكتاب البلغاء كابن المقفع وأبي عثمان الجاحظ وابن العميد وعبد الحميد وأبي اسحق الصابي والثعالبي والصولي ، وأن يجددوا عهد المؤلفين والمترجمين والنبغاء كحنين بن اسحق ويعقوب بن اسحق الكندي وثابت بن قرة الحراني ، وعمر بن الفرخان الطبري ، وكأبي بكر الرازي وأبي نصر الفارابي ، والشيخ الرئيس ابن سينا وأمثالهم . نعم وأرادوا بذلك أيضاً أن يردوا عوادي الدخيل المهاجم من اللغات الأجنبية كالمصطلحات العلمية والفنية وأسماء المخترعات والمستحدثات الكثيرة المنوعة بما يضعون لها من المقابل العربي الفصيح ، ولئن لم يفعلوا لتضلن اللغة العربية بين هاتيك اللغات الاعجمية الكثيرة المحيطة بها .

قال العالم الأديب الشهير الشيخ أحمد عمر الاسكندري في خطاب له : « وقد جرت سنة الوجود على أن مصير اللغات أمام الانقلابات العظيمة والحوادث الجسام إلى أحد حالين : إما أن تتسامح في قبول كل ما يطرأ عليها من لغة غيرها لاسيما الألفاظ ذات المعاني التي لم تعهدها من قبل فتندمج إحداهما بالاخرى على طول الزمان كما اندمجت لغة بقايا عرب الأندلس في اللغة الاسبنيولية ، وعرب جاوة في لغة الملايو ، واللغة القبطية ورومية سورية في العربية ، أو تخالف عنها خليط ليس من اللغتين كما فعلنا نحن في لغة المحادثة فنشأت العامية المختلفة اللهجات المتشعبة المناحي ، وتبعها اختلاف الأجناس من مصري وشامي وعراقي ومغربي وسوداني وحجازي ويماني ؛ وكما فعلت أمم أوربا أمام لغات المغيرين والفاتحين فنتجت لغات فرعية وامم مختلفة الأجناس . وإما أن تحرز عنها وتتصرف في استعمال الفاظها لضم هذه المعاني الغريبة إليها بطرق التجوز والاشتقاق واستعمال الغريب والعتيق منها فيما له أدنى ملابسة به فتحفظ بذلك كيانها وتبقي شكلها ، بيد أنها تعظم وتفره وتزداد نشاطاً ورشاقة . وبعد فان هي آنست من

أهلها روحاً قوياً ونحيزة سليمة استطالت على اللغة الاجنبية وصادرتها على أعز عزيز عليها من علومها وفنونها .

ففي أي طريق من هاتين الطريقين نسير في تشجيع العربية على اقتحام العقاب ، وتذليل الصعاب التي تحول دون ورودها نهر العلوم والمعارف الذي تحول مجراه إلى جهة الغرب ، اهـ .

ثم إنه شرح طريقته في ترجمة الاصطلاحات والآلات الجديدة فقال : إن هذه الكلمات لا تخلو أن تكون أعلاماً وأسماء أجناس . فاما الأعلام فلا مانع من نقلها أعجمية بعد صقلها بالنطق العربي ، وأما أسماء الأجناس فاما أن تكون معروفة قديماً عند العرب ولها في لغتهم أسماء تطلق عليها أو على ما يشبهها وهذه يبحث عنها في اللغة ويعاد استعمالها في معانيها ، ككلمة قنال (خليج أو قناة) وكلمة قبانية (شركة) . واما أن تكون مجهولة لهم وهذه لنا في نقلها ثلاث طرق :

(١) طريقة ترجمة اللفظ بمرادفه كترجمة سينما توجراف بالصور المتحركة ، وترجمة كرافات برباط الرقبة .

(٢) وطريقة الاشتقاق من الفعل الذي يعبر به عن عمل الكلمة أو صفتها إن كانت من ذوات العمل والصفة . وهذه تسمية جديدة لا ترجمة مثل تسمية البسكليت بالدراجة والاتوموبيل بالسيارة ونحوهما من مثل الدارعة والبارجة والباخرة والنسافة والقطار الخ فان الألفاظ قد وضعت لمسميات افرنجية ولا يوجد من الفريق المخالف لنا من ينكر سهولتها وشهرتها وسبقها غيرها في حلبة الكتابة .

(٣) طريقة النحوز ، وهي طريقة واسعة النواحي كثيرة الفجوج وعليها اعتماد الأوربيين في نقلهم المصطلحات الحديثة من اللاتينية ، وما أغزر علاقات المجاز في لغتنا ، فعلاقة المشابهة في حال من الاحوال تكفينا مؤونة التكلف والتعسف في انتقاء الألفاظ . هذا الى بقية المجاز المرسل كالسببية

والمسببية والحالية والمحلية ، واللازمية والملزومية ، واعتبار ما كان ومايؤول وغيرها مما يكفي فيه أن يكون بين العربي والأعجمي أدنى ملابسة ، ومتى شاع اللفظ الجديد واشتهر فلا يوجد من يبحث عن أصل مأخذه كالدارعة والبارجة والقطار . والمجاز اذا اشتهر صار حقيقة عرفية .

وهذه الطرق الثلاث كلها قياسية في الاستعمال لا ينكرها أرباب العربية وكتبهم في البيان والأصول وعلم الوضع حافلة بشرح حقائقها وتفصيل مباحثها ، (أقول) قد حصر نقل أسماء الأجناس إلى العربية بهذه الطرق الثلاث الترجمة ، والاشتقاق والنحوز . وقال في خطاب ثان اتباعاً لطريقته ودفاعاً عنها : فاني لم أسلك إلا الطريقة التي سلكها أسلافنا عندما أرادوا أن يدونوا علومهم ويترجموا كتب غيرهم من الأمم . كانوا — رحم الله أيامهم — يضعون لاصطلاحات علومهم أسماء منقولة من العربية المحضة بنوع من التساهل والتجوز في المعنيين القديم والجديد ، ولم ينكر أحد عليهم ذلك حتى أهل زماننا ، فوضعوا مصطلحات الصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع والعروض والقافية ومصطلح الحديث والتفسير وأصول الفقه وفروعه والتوحيد ، كما وضعوا مصطلحات العلوم التي ترجموها مثل المنطق والحكمة الالهية والطبيعية والحساب والهندسة والفلك وغير ذلك من العلوم التي لو أردت إحصاء مصطلحاتها لمددت عشرات الالوف من الكلمات ، كلها عربية لها معان اصطلاحية ومعان لغوية ، ومثل ذلك آلات الصناعة والعلوم ، وكتاب المخصص وفقه اللغة وكتاب العين للخليل وجمهرة ابن دريد ونوادر ابن الاعرابي ومفردات ابن البيطار والمادة الطبية الرشيدي وقاموس تجاري بك ، كلها بحور زاخرة باسماء النبات والحيوان والآلات » .

والاستاذ الاسكندري يقول بان التعريب — أي ادخال الكلمات الاعجمية في اللغة العربية بعد صقلها ووزنها بميزان الكلمات العربية — قد وقع فعلاً في عصور الجاهلية وبعد الاسلام ، ولكنه يخص جوازه في القرون التي

يحتج بعربية أهلها دون غيرها ، ويرى لغيرهم طرقاً ثلاثاً : — وهي الترجمة ، والاشتقاق والتجوّز كما تقدم .

ونفى الامام الشافعي ورود كلمات أعجمية في القرآن الكريم كما تجده في أول رسالته ، ونقل الشهاب الخفاجي في (شفاء الغليل ، فيما في كلام العرب من الدخيل) مثل ذلك عن أبي عبيدة قال الشهاب : وذهب أبو عبيدة الى أنه ليس فيه أعجمي وما وقع فيه من اتفاق اللغتين .

ومما يؤيد هذا المذهب أن اللغة العربية كانت على عهد حمورابي أي قبل المسيح عليه السلام بخمسة وعشرين قرناً ، فهي تعد من أصول اللغات بعد الطوفان ، وإذا كانت كذلك فان هذه الالفاظ المستحدثة وضعت أسماء لمسميات اقتضتها سعة الملك واستبحار المدنية وبلهنية العيش ، على عهد اقيال اليمن وملوك حمير وملوك الجزيرة من الغساسنة والمناذرة وملوك الشام الغسانيين وغيرهم ، فاسماء مستحدثات تلك المدنيات العربية هي من أوضاع العرب كمسمياتها ، سواء أوجدت تلك الألفاظ عينها في لغة أخرى أو ما يقاربها .

ويرى العلامة المغربي أحد أعضاء مجمعنا العلمي وقوع التعريب بكثرة في لغتنا الكريمة ، ونقل في كتابه (الاشتقاق والتعريب) عن الجلال السيوطي ما أحصاه من المعرّبات في الكتاب العزيز فبلغ زهاء مئة ، وذلك لا يضره في كونه عربياً فصيحاً ، كما نقل عن أبي منصور ، ولا ينافي كونه وحياً معجزاً ، ثم ذكر من الحديث الشريف أكثر من خمسين كلمة معرّبة . ثم ساق تحت عنوان (طائفة من المعرّبات) أكثر من ثلاثمائة كلمة معرّبة في الحيوان والنبات والعقاقير والمأكول والمشروب والطيوب والملبوس والمعادن والأحجار الكريمة والآلات والأدوات والماعون ، والكلمات العلمية والفنية ، والكلمات الدينية ، فاذا توزع في تعريب بعضها ، فلا يتيسر النزاع في كثير منها .

وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة في أحرف كثيرة أنها غير

عربية كسجيل ومشكاة وأباريق واستبرق ويم وطور وهم أعلم بالتأويل من أبي عبيدة ، وجمع أبو منصور بين القولين بان الألفاظ أعجمية بحسب الأصل ولكنها لما عربت صارت من اللسان العربي ، فهي أعجمية أصلاً عربية حالاً ، فمنهم من نظر إلى الأصل ومنهم من نظر إلى الحال .

ونحن إلى اليوم معشر العرب لا نزال عالة على أمم الغرب في كثير من أثاثنا ورياشنا وملبوسنا ومركوبنا وسائر مطالب الحياة المدنية ولوازمها ، وهذه آلاتهم وأدواتهم المخترعة قد ملأت أقطارنا ، ووقعت بين اسماعنا وأبصارنا كالقطارات والسفن والسيارات والطائرات وأدواتها ، وكالقوى والأسلحة البرية والبحرية والجوية على اختلاف أنواعها وأسمائها ، وكالمصابيح الكهربائية والبرق والهاتف وغيرها ، وانك لتسمع من أسماء الأنسجة والملابس وضروب الأزياء ، ما يكاد يقضي بالدهشة والعجب ، ويخشى أن نخل معه الروابط والعزائم ، عن صد هذا التيار المهاجم .

والحاصل أن كتاب العربية قد كتبوا في مبحث الاشتقاق والتعريب قديماً وحديثاً ، ودلّونا على طرق أربع ، وهي الترجمة والاشتقاق والتجوز والتعريب ، (ويقتصر في الأخير على حد الضرورة) وقد جروا عليها بالفعل ونحن نقتفي أثرهم فهم القدوة الصالحة في ذلك كله .

فلعلّ الله تعالى يوفق مجمعنا الكريم الى ايجاد تلك الكلية ليتخرج فيها من يشاركه من بعد في النهضة العلمية ، وتصحيح ألفاظ الكتّاب والتفتيش عن كلمات عربية للآلات الجديدة والمصطلحات[1] .

وعسى أن يتعاون المجمع العلمي الدمشقي والمجمع اللغوي المصري على خدمة هذه اللغة الشريفة ، فان القطرين المصري والشامي اخوان منذ القديم ، ولا أزال أذكر في ذلك قول شاعر النيل :

---

(١) ثم انشئت هذه الكلية في سنة ١٩٢٠ باسم مدرسة الأدب العليا .

لمصر أم لربوع الشام تنتسب ... هنا العلا وهناك المجد والحسب
أم اللغات غداة الفخر أمها ... وان سألت عن الآباء فالعرب

(اقامة الدين)

في قانون المجمع العلمي الذي أكسبني شرف الانتساب اليه ، والانتظام في سلك أعضائه الكرام : ان المجمع لا يتعرض لأمر ديني تعرضاً ، وقال بعض أفاضله : أما إذا جاء عرضاً أو اقتضته المناسبة فلا بأس ، ولا أرى مناسبة إلى ذلك أقوى من هذا المقال الذي جعلت فيه الدين أحد أركان النهضة القومية الثلاثة ، على أني لست مخالفاً لقانون المجمع ما دمت أبحث في مدنيتنا العربية من الوجهة التاريخية ، وهي تستلزم ذكر الاسلام الذي هو مبعث نورها ، ومصدر ظهورها ، ولا يمكن فصله عنها الا إذا أمكن فصل أشعة الشمس عن كوكب الأرض .

(حاجة المدنية الى الدين)

رأيت قبل أن أخوض في موضوع الكلية (كلية الالهيات) أن أقول كلمة في الدين نفسه تعرف منها الغاية منه والقصد من هذه الكلية الدينية :

يرى بعض الناس أن الناس يمكنهم أن يعيشوا عيشة مدنية مجردة عن هدي الدين الوازع ، بما يسنون لأنفسهم من قوانين وشرائع في الأحكام الشخصية والمعاملات العمومية ويكونون ممتعين في عيشة راضية ، وحياة سامية ، ولكن الاختبار والواقع قد أثبتا فساد هذا الرأي وظهر للناس أن الدين عماد المدنية ومادة حياتها وانها من دونه « كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار » :

أجمعت الأديان السماوية على حرمة الأنفس والعقول والأموال والابضاع وحرمت على الانسان أن يوقع الضرر بنفسه أو بغيره ، ووضعت لذلك

حدوداً عامة وقواعد ثابتة ، ليعيش الفرد والمجموع بسلام ووئام ، ولا يحصل أدنى ضرر خاص أو عام ، ولكن القوانين المدنية قد هتكت هاتيك الحرمات ، واستحلت رسمياً تلك المحرمات ، فأباحت المسكر والميسر والفحش ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وتلك أمور تورث الدمار وتقرض الأعمار وتهدم صرح المدنية الذي شادوه باجيال ، وانى أكتفي بنقل كلمات عن فلاسفة الغرب يتبين منها غرض الدين الاسمى وأن الالحاد أو الفساد الذي وقعت فيه أممهم هو معاول تهدم من كيان مدنيتهم ومناجل تحصدها حصدا .

قال الفيلسوف الشهير (ارنست رينان Ernest Renan) في كتابه تاريخ الأديان : « من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى ، بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الانساني في المضائق الدنيئة للحياة الطينية » .

وقال العلامة (كاميل فلامريون Camille Flammarion) : لايجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لاننا رضينا به وأصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة لاهمّ لها إلا أغراضها الذاتية ! !

أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها ! ! والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب ! والجمود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات .

« وان من التناقض البين المؤلم أن نرى أن الرقي الباهر الذي حصل في العلوم مما لامثيل له في التاريخ ؛ وان هذه الفتوحات المتتالية التي تمت للانسان في الطبيعة بينما رفعت عقولنا الى المدركات العالية ـ هبطت بانسانيتنا إلى أخس الدركات ! ، ومن المحزن أن نحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا

يوماً بعد يوم : تنطفئ حرارة قلوبنا ، وتتصوح زهرة حياتنا القلبية بتأثير غلبة المطامع المادية ، والشهوات الجسدية » انتهى .

قال (دوري Duruy) المؤرخ أحد وزراء فرنسا السابقين « بينما أهل أوربا تائهون في دجى الجهالة لا يرون الضوء الا من سَمِّ الخياط اذ سطع نور قوي من جانب الامة الاسلامية من علوم أدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان وفاس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ، ومنها انتشرت في الامم واغتنم منها أهل أوربا في القرون المتوسطة صناعات وفنوناً .

نقل المؤرخ (سديو) عن (هومبلد Humboldt) أن العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الأمم المنتشرة من شواطئ الفرات الى الوادي الكبير باسبانيا وبين العلوم وأسباب التمدن فتناولتها تلك الامم على أيديهم لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت في الدنيا تأثيراً لايشتبه بغيره ، ثم قال « وهذا حجة على أنهم — كما قال غيرنا — ونحن نعترف به — : أساتذتنا ومعلمونا » .

وقال بعض الباحثين « إن تأثير الفحشاء على القلب والقوى العقلية والآداب والحاسيات ليس بالامر السهل قال المستر بالي في كتابه (الفلسفة الأدبية والسياسية) أي رذيلة في العالم مهما كانت ، تفسد الآداب وتسلب من العقل والأخلاق الأدبية مثل ما يفسد الاتجار المحرم بالنساء ! وقلما نجد انساناً فيه هذه الخصال وعنده أخلاق فاضلة تجعله يشعر بالشر ، فتمنعه عن ذلك قوة ارادته ، وهذه تمهد لهم الطرق لكل كبيرة يرتكبونها ، وفي الطبقة السفلى تكون المسرح الأول لتقدمهم في الأعمال الشريرة وفي الطبقة العالية تؤهلهم الى عدم الاكتراث بتأدية واجباتهم الدينية والادبية .

وقال (جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau) في كتابه (أميل Emile du XVIII^e siècle) : قد لاحظت أن الاحداث الذين يتبعون الفحشاء قد تقسو قلوبهم وتنعدم شفقتهم واعتراهم شره في مزاجهم أعدم صبرهم وجعلهم ذوي عنف وحقد ، وجميع تصوراتهم متجهة لأمر واحد فلا تبالي بغيره ، وهم غرباء بمعزل عن الرحمة والشفقة ، وقد يضحون آباءهم وأمهاتهم وكل هذا الكون لشهواتهم .

وانني أختم هذا الفصل بمحاورة دارت بين حكيم الغرب (هربرت سبنسر Herbert Spencer الانكليزي) وحكيم الشرق الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ومنها يعلم أن الفيلسوف الغربي قد تكهن بان أوربة المادية ستصاب بهذه القارعة العظمى والحرب العامة الكبرى قبل وقوعها بعدة سنين وقد قدم لهذه المحاورة منشئ المنار الأغر بكلمة من عنده نقل فيها رأي أوربي آخر يذكر أن معتقده ومعتقد كثير من الغربيين أن أوروبا ستقع قريباً في حرب طامة أخرى ربما كانت أشد هولاً وفظاعة من الأولى ونحن ننقل تلك الكلمة باختصار فعسى أن يكون في ذلك كله عبرة لأولي البصائر والأبصار :

قال(١) : « ان العلم بسنن الاجتماع والعمران لايغني عن هداية الدين التي توقف أهواء البشر ومطامعهم أن تجمع الى مالا غاية له من الشر ، ولولا أن عند بعض أمم أوربة بقية قليلة منها تتفاوت في أفرادهم قوة وضعفاً ، لحشرتهم المطامع والأحقاد .

(ثم قال) : وهؤلاء البقية لا تخلو منهم أمة ، فهم حجة الله على الأقوام ، ومتى قلوا في أمة غلب عليها الفساد ، وقرب انتقام الله منها (قال) وهم يقلون في أوربة عاما بعد عام ، وقد كان من أصحاب الاحلام

(١) المنار ج ٢ م ٢٠ .

منهم الفيلسوف هربرت سبنسر الانكليزي الذي نهى اليابانيين عن الاستعانة بقومه الانكليز على اصلاح بلادهم فيها ، وقال لهم : إنهم إذا دخلوها لايخرجون منها وقال الأستاذ الامام حين تلاقيا بمدينة (بيرن Berne عاصمة سويسرة) في صيف عام ١٣٢١ (١٠ أغسطس ١٩٠٣) ماترجمته : محي الحق من عقول أهل أوربة واستحوذت عليها الأفكار المادية فذهبت بالفضيلة ، وهذه الأفكار المادية ظهرت في اللاتين أولاً فأفسدت الاخلاق وأضعفت الفضيلة ، ثم سرت عدواها منهم إلى الانكليز فهم الآن يرجعون القهقرى بذلك وسترى هذه الأمم يختبط بعضها ببعض وتنتهي إلى حرب طاحنة ليتبين أيها الأقوى فيكون سلطان العالم .

قال له الامام : اني آمل أن يحول دون ذلك هم الحكماء مثلكم ، واجتهادهم في تقرير مبادئ الحق والعدل ونصر الفضيلة .

(قال الفيلسوف) : وأما أنا فليس عندي مثل هذا الامل فان هذا التيار المادي لابد أن يبلغ حده غاية مدّه .

(وأقول) انني ذاكرت في هذا المعنى سياسياً أوربياً في (جنيف Genève) من بلاد سويسرة فرأيته يعتقد اعتقاد سبنسر ، بل أخبرني أن كثيراً من عقلاء أوربة يعتقدون أن فساد الاخلاق بالترف الذي أهلك الامم الكبرى كاليونان والرومان والفرس والعرب قد أوشك أن يقضي على أوربة ، وستهلك بالحرب التي تلي هذه الحرب الاخيرة وما هي ببعيدة ، ونصح لنا بان لا نقلد أوربة في مدنيتها المادية ، وأن نحافظ على آداب ديننا وفضائله ، وأن نجمع كلمتنا ونجعل الزعامة فينا ، لأهل الرأي والفضيلة منا ونتربص الدوائر بالاوربيين المعتدين علينا اهـ .

فليعتبر المتدينون من بني الشرق مهبط الوحي وموطن الرسل بحال جيرانهم ، وليحذروا من السقوط في حضيضهم والعياذ بالله تعالى .

المدرسة السميساطية[1]

كان لعالم الشام الشيخ محمد جمال الدين القاسمي أمل كبير وسعي عظيم في تجديد النهضة الدينية العلمية في هذه الديار ، فقد حاكى (رحمه الله تعالى) أئمة السلف تعليما للخواص ، وارشاداً للعوام ، وتأليفاً للكتب النافعة ، وزهداً في حطام الدنيا الزائلة ، وقد ترك بعد وفاته أكثر من مائة مصنف كثير منها جدير بان يكون لنا منار هدى في سبيل اصلاحنا الديني ورائد رشاد في سيرنا الاجتماعي .

ولما تم اصلاح المدرسة السميساطية وطلبوا لها قوانين الكليات الاسلامية ونظم دروسها كنظام الأزهر ، ومدرسة القضاء الشرعي في مصر ، وشعبة الالهيات في كلية دار الفنون في الاستانة ، ظننا أنها ستقتفي أثر هذه الكليات في التربية والتعليم ، وستعنى بتخريج رجال يستطيعون أن ينشروا الدعوة الاسلامية بعقل وعلم ويدافعوا عنها بالتي هي أحسن ، فقلت في نفسي إن هذه الكلية الاسلامية ستكون جديرة باتمام عمله ، وتحقيق أمله .

كان محبو الاصلاح يرجون أن تقتفي هذه المدرسة أسلوباً قيماً في التربية والتعليم ، وأن تختار كتباً صالحة للتدريس ، فتكون حينئذ قد سدت فراغاً في بناء الاصلاح الاسلامي ، وحفظت شيئاً من مقام دمشق الديني والاجتماعي ، ولكنا نقول والأسف آخذ من النفوس مأخذه ، انها قد طوت حولين كاملين ولم تكن فيها شيئاً مذكورا ، وها هي ذي الآن تطوي عامها الثالث وفيها دروس لا تستحق الذكر .

ذلك بان الذين عهد اليهم بها قد تنازعوا أمرهم بينهم ، فمنهم من كان يرى وجوب السعي في جعلها مدرسة نظامية جامعة بين الدروس الدينية

---

(١) نسبة للسميساطي القاسم علي بن محمد بن يحيى السلمي الدمشقي (٢٧٣ - ٤٠٣) كما في (الدارس في تاريخ المدارس) للنعيمي الدمشقي (م ٩٢٧) ج ٢ ص ١٥١ .

والعلوم الكونية ، على وجه يزيد الطالب في دينه بصيرة ونورا ، ويجعله أهلاً للدعوة اليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتكون تلك الكلية روضة علوم وفنون زاهرة ، تخرج لنا من تلاميذها زهرات ناضرة تزدان بها معاهد القضاء والافتاء والوعظ والخطابة والتدريس ، وتستعيد بهم سيرتها الأولى ومنهم من يرى الاكتفاء ببعض الدروس العربية والشرعية ولا يقيم للعلوم الكونية وزناً ، ولا يرفع بها رأساً ، فهم بذلك يزيدون الأمة وهناً على وهن ، ويخرجون رجالاً ضعافاً لا ترجى منهم فائدة كبرى لدين ولاوطن .

ربما يقول بعض المقصرين : انا نخشى أن تزيغ بهذه العلوم عقائدهم ، وتضل أحلامهم ، مستدلاً على ذلك بما يرى من ضعف كثير من الدارسين في دينهم .

والجواب أن هذا الكون أثر من آثار صنع الله تعالى ومظهر من أقوى مظاهر قدرته ، فكلما توغل الانسان في درس أسراره ، وتغلغل في البحث عن خواصه ومنافعه ، يزداد ايمانه بوجود خالقه وبديع صنعه ، وعظيم قدرته « قل انظروا ماذا في السموات والارض » « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » . وأما ضعف بعض المتعلمين في دينهم فلأنهم لم يقرأوا العلوم الطبيعية على سبيل الاهتداء والاستبصار ، وربط المسببات بالاسباب ، ولو كان لاولئك المتعلمين أساتذة أدركوا الدين على الوجه الصحيح ، وعرفوا كيف يجمعون بينه وبين العلوم الكونية لما ضلت أفكارهم ولا زاغت عقائدهم ، فالواجب يتقاضى رجال الدين أن يعرفوا من العلوم الكونية ما يمكنهم من بيان أن الدين يؤاخي العقل ويساوق العلم في سائر موارده ، وقد قلت في محاضرة الامام ابن تيمية[1] : ان الذي أبرز الصحيفتين الدينية والكونية وأقام كلاً منهما مشيراً اليه ، ودالاً عليه ، هو واحد جلت حكمته ، جعل الأولى منها وحيا معجزا ، والثانية خلقا معجزا .

(١) القيناها في ردهة المجمع العلمي بدمشق في نيسان سنة ١٩٢٣ م .

لقد كان المدرسة السميساطية في الأزهر الشريف أسوة حسنة ، فلقد ثار علماؤه المصلحون ، وطلابه المنوّرون ، ثورة دكوا بها معالم الجمود والخمول ، وقوضوا بنيان الفوضى والكسل ، وأدخلوا العلوم العصرية الضرورية والنظام الحديث على أزهرهم الشريف ، فجرى دم الوطنية في عروقهم ، وأشربوا حب العمل في قلوبهم ، فشاركوا - وهم علماء الدين - رجال الوطن العاملين في مساعيهم الحميدة ، وأعمالهم العامة المفيدة ، ولم يقفوا موقف الحيارى مسبلين تلك الأردية السوداء كالنساء ، تاركين الجهاد في سبيل انقاذ البلاد — وهو أقدس واجباتهم — الى من يرمونهم بضعف الدين ، فوا أسفاه ! .

أيها السادة : كان في دمشق وحدها مئات من المدارس الدينية والعلمية وقد وصفها كتاب الدارس في المدارس الذي اعتزم المجمع الزاهر طبعه قريباً[1] ان شاء الله . واليوم نرى هذه المدارس خاوية على عروشها ، ولما فتحت المدرسة السميساطية أبوابها ، امتلأت القلوب ابتهاجاً ، وأقبل الطلاب عليها أفواجا ، وتناقلت صحف الأقطار خبر افتتاحها وقبول الطلاب فيها ، فورد سؤال من بعض علماء الهند الى المجمع العلمي عنها وعن درجة التحصيل فيها .

ولكن من كان يظن أن المدرسة تطوى علمها الأول والثاني ولم يقرأ من عينوا لها فيها درساً ، ولا تقاضوا من مرتباتهم شيئاً ، ولم يتيسر للطلاب المنقطعين طعام ولا منام فيها ، ولا كثير ولا قليل من مخصصاتها ، من أجل ذلك ساءت الظنون ، واشتد غضب أولي الفضل والغيرة ، ولا يدرون على من يلقون التبعة ، وكيف لا يظنون الظنون والمدرسة تسير من سيء إلى أسوأ وكوكبها مائل نحو الغروب (لا قدّر الله) .

(١) لقد طبعه المجمع العلمي من بعد ، بتصحيحات احد اعضائه الأمير جعفر الحسني سنة ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م .

لقد كان المنتظر أن يكون أولئك الفضلاء المنتخبون لها قلب الدين الخافق ، ولسانه الحر الناطق ، وصوته العالي المسموع ، فهل كممت أفواههم عن القول ، وغلت أيديهم عن العمل ، وحيل بينهم وبين مايشتهون !

لقد كان يرجى منهم أن يقوموا بهذه الخدمة المقدسة التي دعوا اليها حق القيام ، أو أن يعتذروا ان لم يتمكنوا أو يكلوا العمل الى غيرهم .

كانت مدينة دمشق في العصور الذهبية مدينة علم اسلامي ، ومدنية عربية ، فهل تجدد الآن المدرسة السميساطية شيئاً من مجدها الدارس أو تستمر في هذا الضعف حتى تلحق باخواتها المدارس الدوارس مرة أخرى ؟

سمعت مرة بعض أفاضل المسيحيين يقول في حفلة وطنية : انكم أيها المسلمون في سورية — أكثر منا عدداً ، وان نهوضنا متوقف على نهوض المسلمين وعملهم بدينهم ، واقامته على وجهه ؛ ألا يرى أن المسلمين في القرون الثلاثة الأولى للاسلام كانوا أرقى الأمم علماً وعقلاً ومدنية ، وانهم في هذه القرون المتأخرة قد حرم جهلهم على أنفسهم وعلى غيرهم باسم الدين علوم الثروة والقوة التي فاقتهم بها أمم الغرب فسلبتهم كل شيء ، وان جاحديهم يتعلمون تلك العلوم باسم الالحاد لا باسم الاسلام ، ولست أتصور جهلاً بالاسلام وتعاليمه أشد من جهل من يحرم على المسلمين علوما عدّها الاسلام فروضاً على متبعيه .

وبعد فاني أقترح على رجال المجمع الكرام أن يسعوا بربط هذا المعهد الديني بالجامعة السورية وأن يمدوه بالنظام ، ويذكوا في رجاله نار الغيرة والاهتمام ، فعسى أن يوفق للقيام بعمله ، واداء واجبه ، وعسى أن يحذو حذو المجمع العلمي الذي نال ثقة المجامع العلمية في العالم بحق ، ونهض بدمشق نهضة تستوجب مزيد الشكر :

اذا يسر الله بتوفيقه تم بهمة رجال المجمع الاعلام أن تنشأ كلية الآداب

العربية(١) وأن تنهض المدرسة السميساطية بطلابها النجباء من وهدة الخمول والضعة ، الى منازل العزة والرفعة ، واضيفت هاتان الكليتان الى الجامعة السورية ، وكلها تدرس وتؤلف باللسان العربي المبين . وإذا اتسع نطاقها كلها تدريجياً كانت نهضتنا الحديثة قائمة على أركان ثلاثة هي أركان مدنيتنا القديمة وهي الدين واللغة والصناعات ، وبذلك نرجو أن تستعيد بلاد الشام ، ما كان لها من مجد في سالف الأيام ، ان شاء الله تعالى .

(١) قلنا أنها انشئت فعلا .